حكم زل

طريق التاريخ

301:M95tA

مكرزل، قبلان.

طريق التاريخ.

301
M95tA

Jan 13 '57

AS
301
M95EA
C.1

فيلان مكرزل

أصول طرق التدريس

الجزء الاول

١٩٥٠

طبع من هذا الكتاب خمسمائة نسخة على ورق عادي
ونسختان على ورق ممتاز

الطبعة الاولى ١٩٥٠

جميع الحقوق محفوظة

تقدمة

الى ارواح ثوار انطليـــاس واعوانهم ابطـال عاميتي ١٨٢٠ و ١٨٤٠

والى ارواح شهداء بلادي في مختلف ادوار تاريخهـــا المجيد

والى جمهوريتنا الفتية المفداة وعهدنا الاستقلالي الابي

والى بناتي وابنائي اشبال هذا الجيل الحبيب والاجيال المقبلة في لبنان وفي سائر اقطار العرب الكرام

اقدم هذا الكتاب .

ف . م .

مقدمة

شرقيّ بلدتنا كهوف قديمة جداً ، كهوف طبيعية ، منفتحة في بطن احدى التلال فويق نبعنا الفوار . كنت ايام الحداثة اذهب اليها مرات في اليوم الواحد وحولي سرب من بنيّات البلدة نلعب في تلك الاماكن المملوءة باطياف الاجيال . وكان نصيب من يتسلل الى سربنا من الصبيان الضرب ، عدا الشتائم البديعة النسج والتركيب . ومن توافح منهم فنقّافتي لا تخطىء الهدف . ثم اصبحت ازورها وحدي كل احد او عيد لاتمرن في هدآتها على ما ينبغي القاؤه في المدرسة من قصائد او خطب .

وما ان خرجت من المدرسة ودخلت معهد الحقوق حتى اتسع لديّ الوقت فشرعت اجتمع – هذه المرة – والشبان في كهف اسمه « مغارة البلانة » لتنظيم ابناء البلدة وجيرانهم في النضال ضد الاستعمار ومطيته الاقطاعية . تلك تقاليد غالية ، مقدسة ، ورثناها عن جدودنا وآبائنا الاحرار .

وكنت من وقت الى وقت اجتمع في هاتيك الكهوف وفتاة رشيقة القوام ، كستنائية الشعر ، سوداء العينين ، ابية الجمال كتاريخ بلدتها . فأشرح لها اشياء عن ماضي لبنان وحاضره وابطاله الميامين – المنسيين احياناً – الذين دافعوا عن استقلاله وناضلوا الاجنبي والاقطاعي . فنتناقش بين الآن والآن وتشتد المناقشة ، بتأثير ما تعلمته هي في مدرستها ، حتى الخصام . وكم كنا نتخاصم ؛ ومع ذلك فلا قبل لاحدنا ان يفترق عن الآخر .

لكني سرعان ما كنت انسى كل شيء عندما اسمع صوتها العذب يرتفع باناشيد الجمال والنضال كالهضبات ، وينخفض كاغوار الوادي الاغن ، ويتداح ناعماً حنوناً كموجات الشاطىء ، مهيب الابعاد كسير التاريخ .

ولا يطيب لي الى اليوم الا ان ازور هذه الكهوف ولو مرة في الاسبوع ، ويدها في يدي ، وحولنا اولادنا يلعبون هازجين في تلك الاماكن التي ترعرعنا يوماً فيوماً بين هضباتها الازليـة الاخضرار والاحلام .

كنت عهد ذاك اقرأ جبران والريحاني وروسو ومونتسكيه وفولتير وهيجل ثم دروين وماركس وانجلس ومورغان الاميركي الذي قضى شطراً من حياته يجوب المجاهل والجزر – في اميركا والمحيط الهادىء – ليدرس عن كثب حياة ناسها البدائيين ؛ كما كنت اطالع عديدين غيرهم .

وان ما تقرأه هنا الآن يا ابن بلادي لهو واحد من المواضيع المتسلسلة التي كنت اطالعها تحت كل شجرة وفي حنوة كل صخر من صخور بلدتي وشجراتها ؛ فأدوّن النواحي التي اعتقدها صحيحة من هذه المواضيع واعلق عليها او انقّح ، ثم اتناقش ورفيقتي فيها . وكان علي ان اسمي هذا المؤلف البسيط الخالي من الزخرفات الكتابية : « ناموس التطور الاجتماعي » مثلاً . وانما سميته كذلك حرصاً على تعبير رفيقة ايامي اذ كانت تقول لي عندما نجتمع في هذه الكهوف : هات لنا شيئاً عن « طريق التاريخ . »

المؤلف

الجنين يعيد التاريخ

يقال ان الحياة هي المرحلة التي يجتازها الكائن الحي او الانسان من رحم امه الى رحم التراب . هكذا يعتقد البعض . بيد أن الحياة اقدم عهداً من ذلك وابعد مدى . انها بدأت منذ « الخلية العضوية » الاولى — منذ ملايين السنين — وقد تستمر الى ما لا نهاية له .

هاك الجنين . فهو يختصر لنا خلال التسعة الاشهر في رحم امه تاريخ تطور الجنس البشري منذ الخلية الاولى حتى شكلنا الحالي . فيبدأ خلية واحدة لا تلبث ان تسير على ناموس الانقسام المتصل ، اي النمو . ثم يتخذ جسمه شكلاً حلقياً فخياشيم كالاسماك : وفي هذا رمز الى المرحلة التي اجتازها الجنس في مياه البحار . وتظهر بعد ذلك اليدان والرجلان والذنب ... ثم يتوارى الذنب ويطرُّ في جلد الجنين شعر يجعله اشبه بجلد البهائم : وهذا ما يشير الى ان الجنس كان قد خرج من ضحاضح البحار الى ضواحي السواحل والغابات . ثم تزول هذه الظواهر من الجنين فيشرع باتخاذ الشكل الذي وصل اليه تطور الانسان في عهده الحاضر : وهذه ليست الصفحة الاخيرة في تاريخ تطور الجنس البشري .

ولا يزال يظهر الى اليوم — عند الولادة — فلتات عجيبة : كجنين يولد بشكل حيوان او يولد وله ذنب اوعدة اثداء او غير ذلك . ان هذه الا بقايا تعود بين الحين والحين فتذكرنا بتلك الاشكال العديدة التي اتخذناها خلال الازمنة السحيقة الأبعاد . وقد يولد اشكال ترمز الى شيء من انسان الغد ايضاً ...

اما كتابي هذا فلا يتناول تلك الناحية من تطور الانسان بل ناحية التطور الاجتماعي : منذ المجتمع البدائي العريق الى اليوم .

المجتمع العريق

عرف تاريخ البشر في طريق تطوره اربعة مجتمعات :

١ – المجتمع البدائي العريق : وهو لا طبقي .

٢ – مجتمع الرق : الطبقي الاول .

٣ – المجتمع الاقطاعي : الطبقي الثاني .

٤ – المجتمع الرأسمالي : الطبقي الثالث .

ونرى المجتمع الرأسمالي اليوم يتمخض بظروف المجتمع الخامس ، مجتمع المستقبل العتيد .

نبدأ بدرس المجتمع الاول،العريق (وسنصدر عنه كتاباً خاصاً) . انه قديم جداً . مرت به او بخطوطه الكبرى سائر شعوب الارض . لم يكن فيه تملك فردي ولا استثمار ولا طبقات ، وبالتالي لا نضال طبقي . وهو يقسم الى مرحلتين : مرحلة وحشية متأخرة دامت عهدا طويلا جدا ومرحلة بربرية ارقى نسبيا .

المرحلة الوحشية :

لنتجرد قليلاً من حاضرنا وننصرف الى تلك الغابات الكثيفة الغبياء . غابات ذلك العهد البعيد . فنرى انواعاً عجيبة من الاشجار والحيوانات الضخمة وغير الضخمة ومن الاطيار المدهشة الاجناس والاشكال والاحجام . كائنات قد انقرض الكثير منها ، وتطور الكثير وتغير . ولم يبق ما ينبئنا عن بعضها الا بطون الارض والانهر والبحيرات واحشاء الثلوج الازليه .

ولنتناس ولو موقتاً مختلف صناعات زماننا وزراعاته وبناياته ومخترعاته وتشريعاته وفنونه الجميلة وغير الجميلة ، ونتلفت الى غابات ليس فيها شيء من هذه البدائع . في تلك الغابات كان البشر الاقدمون يعيشون مرحلتهم البدائية ، الوحشية . يعيشون كحيوانات الغاب . وهم ايضاً قد انقرض منهم اجناس وتطور الباقي كثيراً . كانوا يتنقلون عراة حفاة في مختلف الغابات ويأكلون ما تقع عليه عينهم من الاثمار التي تهيئها الطبيعة وما يطيب لهم من عروق الاشجار والنباتات . ذلك قبل اهتدائهم الى النار . وكانت لغاتهم تقاطيع اصوات واشارات . وسلاحهم ضد الحيوانات : الحجارة بشكلها الطبيعي — في بادىء الامر — والاغصان ، او الهرب الى اعالي الشجر او الى الاماكن الصعبة المسالك في سفوح الاودية او صدور الجبال . انهم لم يهتدوا الى صيد الحيوان بعد . بل قويه كان يتحداهم . لذلك لم يعرفوا الحياة المنفردة كما اعتقد بعض العلماء . بل عاشوا اسراباً ، جماعات . ولولا ذلك لما استطاعوا أن يدافعوا عن نفسهم ، ان يدرأوا تلك الحيوانات الصوالة الضخمة كالقلاع والتي انقرض اليوم الكثير منها . لقد افترست كثيرين من جدودنا هذه الحيوانات ، كما قتلوا هم كثيراً منها مجتمعين . ان حياتهم المتكتلة كانت سلاحهم الاهم في غابات ذلك العهد .

ولم تكن القطعان او الاسراب البشرية ثابتة في بقعة واحدة . بل كان جدود البشر يعيشون رحّلاً من غابة الى غـــابة وراء الاثمار . وينامون ، ليس في القصور ولا في الكهوف والمغاور ، بل حيث تغيب لهم الشمس . وكان تزاوجهم خليطاً كضواري البرية او كاطيارها : انهم لم يعرفوا الحياة العائلية عهد ذاك .

وبعد حقبة من الزمن اهتدوا الى استعمال النار . استعملوها للتدفئة ولشيّ بعض مآكلهم ومنها البزّاق والسراطين والاصداف ، ولتخويف الحيوانات في الليل وما الى ذلك . وكانت النار خطوة جلى الى امام بل

ثورة كبرى غيرت مجرى حياتهم : اذ اعطتهم طريق العمل التي نقلهم نهائيا من طورهم الوحشي الى طريق التطور الاجتماعي ، الانساني . الحيوان ، ان يشتغل ، فهو لا يصنع آلات . اما الانسان فاخذ يصبح — قبل غيره من حيوانات الغاب — حيوانا يشتغل ويصنع ادوات للشغل ويضرم النار. بدأ يسيطر على الطبيعة .

وجعلت بعض النساء يصبحن اغنج حيوان على سطح الارض !

واستعملهم النار درجهم الى الصيد المائي ، صيد الاسماك وشيها . فشرعوا يخرجون من ظلمات الغاب الى الافاق المشرقة ويتنقلون على ضفاف الانهر . وراحت ظروف الصيد المائي نفسها تهديهم الى مختلف الوسائل التي تمكنهم من صيد كمية اكبر .

وكم في الغاب ايضاً من حيوانات يمكن شيّها على النار كالاسماك ... انها تثير القابلية . والقابلية — كل شيء في الدنيا ، وكالغرائز — قابلة للتطور .

وشرع سلاحهم « البري » يتطور : من غصن شجرة بسيط الى نبوت، فالى غصن برأسه مداد من حجر كالحربة ، فالى قوس ونشاب . وهنا بدأ صيد الحيوان وكذلك « صناعة » الادوات الظرانية كالشفار الصوانية والمخارز والازاميل والاسافين والمناشير والكواشط ورؤوس السهام الدقيقة التي اخذت تظهر — كعمل جدي — عند بدء الصيد البري والتي ترينا منها الكهوف الطبيعية وحنوات الصخور بقايا متنوعة وملموسة التطور : اذ جعلوا يأوون الى المغاور منذ هذه المرحلة ، مرحلة بدء الصيد البري . ونرى بعض الكهوف كأنه كان « معملا » لصناعة الادوات الظرانية هذه الراسبة بكثرة في احشاء ارضه والتي كانوا يستعملونها لسلخ جلد الحيوان وتقطيع لحمه وفلق عظمه واستخراج ما فيه من مخ . ولكل من هذه الادوات وظيفتها . تنوعت اشكالها بتنوع الحاجات اليها.

ثم ظهرت الفأس الحجرية التي استعملوهـــا فيما بعد لقطع الشجر وبناء اكواخهم .

وجعل الصيد البري يصبح اهم موارد غذائهم بالنسبة للثمر وصيد السمك . ومع ذلك فغذاؤهم كان لا يزال كفاف يومهم .

هنا تنتهي المرحلة الوحشية . وملخصها : عاشت القطعـان البشرية في اوائلها متنقلة وراء الاثمار والنباتات . وفي اواسطها اهتدت القطعـان الى استعمال النار للتدفئة وشي البزاق والسراطين ثم الاسماك . وفي اواخرها ظهرت القوس والنشاب ثم الفـأس الحجرية ، فدخلت القطعان مرحلتهـا البربرية الممتدة الى بدء نظام الرق اي الى التاريخ المكتوب كما سنرى .

المرحلة البربرية :

ان الصيد البري جعل حياتهم المتنقلة تتجه للتمركز في هذه الغـابة او تلك الى ان تنضب ثمارها ويشح حيوانها . انها لم تتمركز نهائيا بعد ، بل تتجه اتجاهاً الى التمركز . لذلك اخذ النـــاس كما قدمنا يأوون الى الكهوف الطبيعية ، حيث هنـاك مغـاور وكهوف ، كما اخذت بيوت الصيادين تظهر . انهـا مصنوعة من اغصان الغابة – بفضل النـار والفأس الحجرية – او من الهشيم وبعض الاتربة المرطبة ... ويتسع الواحد منها لعشرات الاشخاص بل للسرب باجمعه احياناً .

وكان اكثر الرجال يذهبون الى الصيد واكثر النساء يعتنين بالبيوت – الاكواخ الواسعة او الكهوف الطبيعية – وبالاطفال والعجز وبشي او طهي ما اصطاده الرجال . كان الجدود الصيادون يذهبون الى الصيد مشتركين ويأكلون نتاج صيدهم مشتركين ايضاً . وكان عمل النساء المنزلي متعادلاً وعمل الرجال بل ارجح . لذلك كن مساويات

للرجال في سائر مظاهر الحياة الاجتماعية التي عرفتها قبيلة الصيادين. وسنشرح هذا في حينه.

واخذ العمل المنظم في الصيد البري ينظم في الوقت نفسه علاقاتهم الجنسية، التناسلية. فبعد ان كان التزاوج حلقة اختلاط جنسي واحدة واسعة تعم القطيع باسره اصبح في عهد الصيد البري حلقات عديده لا علاقة جنسية — في اول الامر — بين افراد حلقة ما وافراد حلقة ثانية. لكنه لا يزال في داخل كل من هذه الحلقات اختلاط عميق مزعج: جميع ذكور الحلقة «يخالطون» جميع اناثها بدون استثناء. فالاب والحالة هذه لم يزل غير معروف، اما الام فمعروفة، طبعاً. اذن خط القرابة ما يزال خط الرحم، خط الام. وعلى الرغم من ذلك فهذه الحلقات انظم من الخليط الواسع السابق. وافضلها نسبياً حلقة «الجانس» الرحمية — عائلة الصيادين — التي سنمر بها في حينها ايضاً. اما الآن فلنعد الى تطور وسائل العمل.

تمتاز الاحقاب التي قطعناها الى هنا باستعمال النار والصيد المائي ولا سيما الصيد البري. فنرى ابناءها قد بدأوا يسيطرون بعض الشيء على وسائل لاقتناص العيش. لكنه لا يزال كفاف يومهم. وقد استعملوا الى الآن اشياء كثيرة، مثلاً: من ألياف الشجر صنعوا حبالاً. ومن الغزار والقصب او من بعض القضبان المستطيلة اللدنة صنعوا السلال. ونسجوا اشياء من ألياف دقيقة كانوا يستلونها من بعض النباتات او الاشجار ثم من اصواف الحيوانات التي يصطادونها. لكن النسج لم يصبح صناعة بعد. وقد لبسوا من جلود تلك الحيوانات احيانا. ومن الحجارة صنعوا ايضاً فأساً ذات صلابة لا بأس بها. وكانت النار والفأس الحجرية تنفعانهم لحفر زوارق من جذوع الاشجار ولصنع الخشب لبناء بيوتهم، اكواخهم كما قدمنا.

هذا عدا الاواني المنزلية التي صنعوها من الخشب ومن قشور بعض

الاثمار كالجوز الهندي ثم – بعد ذلك – من الفخار .

لم يبق جدود البشر في جهل مطبق تجاه الطبيعة . بل اصبحوا في عراك دائم معها ، يعملون رويداً رويداً لتسخيرها ، للاستيلاء على طرائق ووسائل لانتاج رزقهم . وكان هذا العراك مع الطبيعة – وأهم مظاهره العمل – يلفت نظرهم وحواسهم الى حوادث – وظواهر طبيعية – عديدة تضرب دماغهم وتحملهم شيئاً فشيئاً للافادة منها . اليك مثلاً بسيطاً : كانوا يضعون النار في حفرة صغيرة من الارض ، او بين عدة احجار ، او يسيجون عليها ببعض الاتربة الرطبة ليقوها من الهواء . فشاهدوا مع التكرار ان بعضاً من الاتربة يشتد على النار وينقسيّ . فاخذوا يكيّفونه ويصنعون منه اوعيتهم وآنيتهم لوضع الماء او لسلق ما كلهم . وعلى هذا النحو اهتدوا الى استعمال الصلصال وتطويره مع الوقت الى صناعة الفخار التي هي ابنة تلك المرحلة من التاريخ .

وها هم يهتدون بعد مرحلة من الزمن الى تدجين الحيوان .

قد يكون الصيد البري هو الذي هداهم للتدجين ، كأن يلفت نظرهم الى حيل تمكنهم من اقتناص الحيوان حياً ليأكلوه عند الحاجة . وقد يكون هداهم اليه بدء عبادة الحيوان ، فيحتالون على بعض الحيوانات الضعيفة ويبقونها حية معتنين بها لتضحيتها في يوم العيد . . وسرعان ما اصبح تدجين المواشي ورعيها اهمّ الاعمال في القبيلة . انها ثروة تولد ثروات . وهي لا تفسد بعد ايام كالثمار والاسماك والحيوانات المقتولة . اذن هي صالحة لان تكون من الاسس العتيدة التي يمكن ان يرتكز عليها التملك الفردي . . . وهكذا ايضاً توطدت عبادة الحيوان في هـذه المرحلة .

وقطاف الاشجار التي بدأوا يعتنون بها في هذه المرحلة من تمركزهم النسبي ليأكلوا من ثمارها عند الحاجة كان اشد العوامل في هديهم الى الزراعة .

وجعل العمل الزراعي – بما فيه بعد ذلك زراعة الحبوب – يتطور حتى اصبح اهمّ اعمالهم . عندئذ اخذوا يتسمرون الى الارض ، ويتلاشى ترحالهم : انهم ينتظرون المواسم والغلات .

ثم هاهي البيوت الحجرية تتفسر ، وقبالتها تتفسر هياكلهم ومدافنهم ؛ مدافنهم التي بدأت منذ بدء حياتهم العائلية الحلقية وتطورت من دفن في الشمس او في المطر – اي ترك الميت او العاجز على الطريق في عهد التنقل المستمر ، او اكله – الى مدافن ترابية اي تحت ردة من التراب او بعض احجار فالى قبور فخارية فالى مدافن منحوتة يدهشنا احياناً صنع نواويسها .

وكانوا قد تدرجوا الى صهر الحديد غب اهتدائهم الى عدة معادن قبله كالرصاص والنحاس . فازدهرت صناعة تلك الظروف عاضدة الزراعة بسكة المحراثة من حديد بعد السكة الخشبية التي سنانها من حجر . وكانت صناعة النسج قد تطورت ايضاً واصبحت – بواسطة الانوال – قسماً جدياً من اقسام العمل .

وهكذا جعل جدود البشر يخرجون رويداً رويداً من مرحلتهم البربرية الى « التاريخ المكتوب » حاملين الابجدية ، ومعهم – عدا الانوال وسكة المحراثة الحديدية التي يجرها الحيوان والتي عملت على تحويل الارض الى مزارع غناء – معهم الميثولوجيا – المعتقدات القديمة الغريبة الجمال – واناشيد الشعراء الخالدين ، كهوميروس ، المنعكسة فيها تلك الاحقاب التاريخية البعيدة : فنرى ادوات العمل مصنوعة من الحديد كما نرى المطاحن يديرها الهواء ، والمعاصر لتحضير الزيوت والخمور ، ونرى صناعة المعادن كفرع فني من فروع العمل ، وعجلات الحرب وبناء المراكب والسفن وتطور فن النحت والنقش وتحصين المدن بالاسوار والقلاع الضخمة ...

نحن الآن في مجتمع الرق ، المجتمع الطبقي الاول . وسنتكلم عنه بعد حين .

ولا يعتقدن احد ان تطور البشر كان في سائر بقاع الارض متوازياً. فبعض جماعات كانت قد اهتدت مثلاً الى الزراعة في بعض الاماكن بينما غيرها في جهات اخرى كانت لاتزال تعيش على الصيد ، وغيرها على ثمار الغابات . ثم ان هذا التطور قد لزمه قرون طوال . وقد يكون لزمهم قرون طوال ايضاً بين اهتدائهم الى وسيلة عمل او انتاج ما واهتدائهم الى وسيلة اخرى ، عدا ان هذا التطور كان مستقلا في الاساس عن ارادة الناس وعن سابق تفكيرهم وتصميمهم : حوادث العمل هي التي قادتهم من معرفة الى معرفة ومن مفاجأة الى مفاجأة . هم لا يعلّمون الحوادث بل هي التي تعلمهم . وكان هذا التطور متداخلا ايضاً ،متداخلاجداً .فقد ظهرت صناعة النسج مثلا – وان بشكل اوّلي بسيط – منذ عهد الصيد البري .

وجدير – قبل بحث مجتمع الرق – ان نقول شيئاً عن نشأة الطبقات والتملك الفردي .

تفكك المجتمع العريق

ونشأة الطبقات والتملك الفردي

عندما كان البشر يعيشون على ثمار الغابات ثم على الصيد المائي فالبري لم يكن بوسعهم الا الحصول على ما يكاد يكفيهم لسد الرمق، لان وسائل عملهم كانت لا تزال ضعيفة وكذلك نتاجها . عدا ان هذا النتاج قابل للفساد ان لم يستهلك عاجلاً . لذلك لم يكن للتملك الفردي من اساس . فكان العمل مشتركاً ومثله الاستهلاك : الصيادون يعملون مشتركين ويستهلكون نتاج عملهم مشتركين . لكنهم عندما اهتدوا الى تدجين المواشي ورعيها — هذه الثروة التي تولد ثروات — والى بدء الزراعة والنسج، اصبح بالامكان — بعد الاهتداء الى هذه الاعمال الانتاجية — ان يخلقوا كميات اين منها قوة استهلاكهم . وكان العمل قد اخذ يتجه الى الانقسام التدريجي : بين رعي المواشي من جهة ، والزراعة من جهة ثانية . وهنا : جعلت الطبقات تظهر ، او نظام الرق ، كما سنرى فيما بعد . ثم بين الصناعة ، لا سيما صناعة النسج ، والزراعة . ومن الطبيعي ان تشتغل كل فئة في القبيلة على ميدان من ميادين العمل او في قسم من اقسامه وفروعه وتمتلك — هذه الفئة او تلك ، تدريجياً — ادوات انتاجها ومنتجاتها .

لم يكن بالامكان ظهور التملك « الضيّق » الا بعد انقسام العمل . لكنه لا يزال الى هنا تملكاً عائلياً ، تملك « الجانس » او عائلة الصيادين الرحمية . ثم ان التبادل الذي تنظم بين القبيلة والقبيلة عهد تربية المواشي

ورعيها ، بعد ان كان قبل ذلك رهن المصادفات ، قد تطور الآن واخذ يجري ايضاً بين العوائل في داخل القبيلة نفسها . وكان هذا التبادل التجاري يقوي نموّ التملك العائلي ، الجانسي ، الذي لم يصبح بعد تملكاً فردياً .

وقبل الاهتداء الى ما للذهب من مزايا علوية كانت الماشية تقوم مقامه في تبادل المنتجات ؛ اي كانت الماشية هي المقياس العام في التبادل . وكان الرعاة ، وبيدهم هذا المقياس العام ، ينتشرون معه معتزين بعيداً عن مجموع القبيلة ، في السهول الخضر وعلى سفوح الاودية الظليلة وضفاف الانهر . واما الذهب فكان يستعمل للزينة — للزينة فقط — يذوب لمعاناً على صدور البربريات قبل ان ذابت على لمعانه اعراض الحضريات وقبل ان اصبح المقياس العام لمواشي المجتمع الطبقي وبضائعه واخلاقه .

ثم ان الاعمال التي اشتغل بها الرجال مجال تطورها واسع : من الصيد المائي ، الى البري ، فالى تربية الحيوان ورعيه ، والى الزراعة والصناعة . اما الاعمال المنزلية التي تقوم بها المرأة فمن طبيعتها أنها ضعيفة التطور بالنسبة لتلك ، على الرغم من مساهمتها الفعالة في العمل الزراعي : فاصبح الرجال ينتجون كل شيء . وراحت النساء ينحدرن رويداً رويداً الى الدرجة الثانية في المجتمع بالنسبة لدور الرجال . اذ ان المشورة بشؤون العائلة الرحمية وادارتها اضحت من شأن الرجال ، المنتجين كل شيء ، وخاصة الاكبر سناً بينهم . ثم لم يلبث هذا الاكبر سناً ان تسلم كل مقدرات العائلة : هو التملك العائلي الجانسي يتطور الى تملك فردي يبدأ بكبير العائلة الجانسية او الرحمية .

ولننتبهن الى ان الزواج لم يكن فردياً بل اخذ الزواج الفردي يظهر تبعاً لظهور التملك الفردي ، تملك كبير الجانس الذي انتهى تدريجياً الى تملك الافراد .

اجل، تغلب الرجل على المرأة في مرحلة تفسّخ المجتمع العريق وتغلب معه خط العصب على خط الرحم كما سنرى في الفصل المتعلق بتطور العائلة.

وهكذا تفسخ المجتمع العريق. فمن عمل مشترك يسود قبيلة الصيادين الى انقسام الاعمال: تربية المواشي او رعيها والزراعة والصناعة، مما ضاق به نطاق العمل المشترك وقتذاك وامسي بقاؤه معرقـــلا لتقدم القوى الانتاجية الجديدة. ثم من تملك مشترك الى تملك عائلي جانسي فالى تملك فردي يبدأ بكبير العائلية الجانسية. ومن خط الام في القرابة الى خط الاب، واصبح الناس لاول مرة في التاريخ يعرفون آباءهم ...

وعلى الرغم من ذلك فالتملك الفردي كان تقدمياً، ضرورياً لتطوير وسائل العمل وادواته. وكذلك الزواج الفردي: انه تقدمي وضروري بل هو اتم شكل للزواج برغم جرثومة الزنى التي في تلافيفه. فالزنى في الزواج الفردى يمتُّ بصلة وثقى الى الاستثمار في التملك الفردي.

مجتمع الرق

هو المجتمع الثاني ، او المجتمع الطبقي الاول . انتقل اليه الناس من المجتمع العريق . انتقلوا بدون ثورات . لان المجتمع السابق ، العريق ، لم يكن مبنياً على طبقات وبالتالي لم يكن ثمة نضال طبقي .

وكان مجتمع الرق تقدمياً في مرحلته الاولى ، ضرورياً لرفع مستوى الزراعة ، فهي بحاجة الى ايد عاملة غزيرة ، غريبة عن القبيلة ، اذ لم يعد يكفيها عمل العائلة الجانسية الضيق النطاق. وكذلك الصناعات .

نشأت ظروف مجتمع الرق في صدوع المجتمع العريق – في مرحلة تفسخه – وراحت تعمل على ازالته . ذلك عندما بدء العمل المشترك ينقسم الى تربية المواشي ورعيها من جهة والى الزارعة من جهة ثانية كما ألمحنا ، اي عند انفصال الرعي عن الزراعة ، اذ احتاجت الارض الى ايد عاملة غزيرة : الشيء الذي لم يكن متوفراً في القبيلة . فراحت هذه القبيلة التي عرفت الزراعة تغزو الاسراب او القبائل المتأخرة التي لا تزال تعيش على الاثمار او الصيد المائي او البري ، ثم تأتي بالاسرى وتسترقهم ، تجعلهم ارقاء يتدربون على الشغل في الارض وفي المنازل وفي كثير من فروع العمل. وكانت حالتهم في بادىء الامر لابأس بها . كانت حسنة ، يعيشون في الجانس كسائر افراده . اي لم يعد افراد الجانس يقتلونهم او يأكلونهم بل يشتغلون واياهم . وقد برز منهم نوابغ ابتدعوا تعديلاً وتطويراً في شتى ميادين العمل والفن .

لكن الحال لم تبق على هذا المنوال لا سيما بعد الانقسام الثاني للعمل ،

ذلك الانقسام الذي حدث بين الصناعة والزراعة ؛ اذ اصبحت سائر اقسام العمل وفروعه ولا سيما الزراعة بحاجة قصوى الى عدد من الايدي العاملة اضخم : الحروب قمينة بخلقه .

وهكذا ، فلم يكتف الانقسام الاول في العمل بأن عمل على خلق التملك العائلي الجانسي الذي تطور الى تملك فردي بادىء بكبير الجانس بل كان قد اوجد في الوقت نفسه طبقة من الارقاء ما لبث الانقسام الثاني – انفصال الصناعة ، لا سيما النسج ، عن الزراعة – ان وطدها وضخمها .

اجل ، هكذا ظهرت لاول مرة في تاريخ البشر طبقتان : طبقة مالكة ادوات الانتاج والمنتجات وطبقة غير مالكة بل هي نفسها مملوكة ، هي نفسها وسيلة انتاج . الاولى طبقة الاسياد والثانية طبقة الارقاء – هذه هي علاقات مجتمع الرق الانتاجية اي علاقة الطبقات بادوات الانتاج ، ونوع التملك المطبق على تلك الادوات .

وكان بين هاتين الطبقتين جماعات متوسطة الحال : هم احرار . ليسوا ارقاء . وليسوا اسياداً ايضاً لانهم لا يملكون ارقاء . بل كانوا يقعون هم انفسهم في الرق لاسباب عديدة كأن يفتقر احدهم او يعجز عن تأدية ما عليه من الديون . فيمسي رقيقاً للدائن ، للتاجر او للمرابي . اذ من المعروف ان المال في حركة دائمة كاسماك البحر : كبيرها يبتلع الاصغر . اي ان المال في اتجاه مستمر الى التمركز . ولذلك فنمو التبادل والتجارة وتمركز الثروات جعل يفقر الاكثرية من ابناء الجماعات المتوسطة ويزيلها شيئاً فشيئاً من الوجود : اي يوقعها في الرق .

وما التجارة الا القسم الثالث من اقسام العمل الاساسية .

وكانت اعمال الارقاء تزيد خطورة وشمولا ان في الزراعة او في الصناعة او في اي فرع من فروع الاشغال . فراحت الحروب تخلق –

باستمرار – هذه الايدي المنتجة والصالحة للعمل حتى في الميدان المنزلي كما راحت حالة الارقاء تسير من سيء الى اسوأ . وظل عددهم يتعاظم حتى اصبحوا قوة لا يستهان بها . اصبحوا اكثرية مخيفة ... فاخـــذت تظهر لاول مرة في التاريخ السلطة المدنية ، الحكومية، ومعها جيشها وضرائبها وسجونها وما الى ذلك . هي ليست هيئات لادارة الاعمال كالتي كانت تمثل ، منذ نظام الصيادين ، كل فئات القبيلة والتي كان دور المرأة فيهـا مساوياً لدور الرجل . انها سلطة من طبيعة جديدة. ليست تمثل كل فئات المجتمع وليس للمرأة دور فيها ولا في انتخابها . انها آلة ضغط طبقية .آلة رهيبة بيد الاسياد ، الاقلية المتملكة الحاكمة ، لضغط الاكثرية المملوكة المحكومة ، لضغط الارقاء وحملهم على العمل والطاعة .

وكان الارقاء محرومين كل حق . لم يكن لهم مثلا ان يتملكوا او ان يدافعوا عن نفسهم امام المحاكم . ذلك من شأن الاسياد والاحرار وحدهم . اما هم فارقاء ، وللسيد عليهم حق الحياة والموت ، وحق بيعهم او التبادل بهم وبنسائهم واولادهم . هم اشياء ، سلع : يستطيع السيد ان يبدل الماشية برقيق او رقيقين ، او الرقيق بماشية او مـــاشيتين، حسب جودة البضاعة ورداءتها . قلنا يبـــادل السيد بنسائهم واولادهم ، مع ان الارقاء كانوا محرومين حق انشاء عائلة . اذن ، بنسائهم واولادهم الذين يجيئون بصورة طبيعية ، عفوية .

وكان يحق للسيد – ويا لفضائل النظام الطبقي – ان يبيع اولاده ايضاً . يبيعهم اذا غضب على احدهم او اذا افتقر ، كما كان له ان يهمل الرقيق او ان يطرده عندما يشيخ هذا ولا يعود صالحاً للعمل !

لنترك الآن – بصورة موقتة – الظروف الانتاجية والنضال الطبقي يتطوران ويعملان ليل نهار بل كل ساعة ودقيقة على تفسيخ نظام الرق ، ولنلق نظرة على كيفية نشوء العائلة والمعتقد الديني .

تطور العائلة

لم تكن العائلة دائماً كما هي اليوم . فقد مرت بادوار عديدة كل دور منها يطابق بخطوطه الكبرى اساساً او شكلاً من اشكال العمل البشري او حياة البشر الانتاجية . وكل تحول في الظروف الانتاجية – التي هي اساس كل مجتمع – يسوق معه عاجلاً او آجلا جل محتويات الصرح الفكري بما فيه من شرائع وسياسات وفنون وآداب واشكال عوائل وما الى ذلك ؛ على الرغم مما لهذه الاشياء – بدورها – من تأثير على الظروف او العلاقات الانتاجية نفسها .

ان العائلة لم توجد منذ البدء . وقد رأينا ، عندما كان الناس يعيشون رحلا وراء الاثمار من غابة نضبت الى غابة ولم يكن للعمل المنظم من اثر فيما بينهم ، كيف كان التزاوج حلقة واسعة تعم القطيع او السرب كله . تزاوج خليط لا اثر للنظام فيه ؛ كتزاوج وحوش البرية او عصافير الغابة ، كما تريد . لكن هذه الحلقة الواسعة اخذت تنقسم – في عهد الصيد البري الذي نظم اعمالهم بعض الشيء – الى حلقات اصغر ، حلقات عديدة . فنرى التزاوج الخليط الشامل يأخذ شكلا اضيق من ذي قبل وارقى ، اي شكلا حلقياً : حلقة من الرجال الاصدقاء والنساء الصديقات يتزاوجون فيما بينهم ولا علاقة لهم بالحلقات الأخر . فيحق لكل رجل من رجال هذه الحلقة ان « يخالط » كل امرأة فيها ، وكذلك للنساء . لكنه لم يعد يحق للرجل مخالطة بنات حلقته ، كما لم يعد يحق للامهات ان يخالطن ابناءهن . اما ابناء هذه الحلقة وبناتها فلا يزال لهم ذلك . وخط

القرابة ، طبعاً ، خط الرحم : لان الام معروفة بينما الاب غير معروف .

ثم تطور هذا التزاوج الحلقي فمنع الاخوة والاخوات لام واحدة من مخالطة بعضهم لبعض ، لكنه سمح بذلك لابناء امرأة من هذه الحلقة وبنات امرأة ثانية من الحلقة ذاتها . ومواليد هذا النوع اشد نمواً منهم في النوع السابق . ومن هذا النوع الأخير نشأ « الجانس » : وهو شكل العوائل الرحمية التي سادت قبيلة البرابرة الصيادين . جاء مناسباً لاتجاه الرّحل الى شيء من العمل المنظم ومن التمركز .

الجانس – عائلة الصيادين – هو حلقة ثابتة من الاشخاص اناثاً وذكوراً تجمع بينهم قرابة الرحم ويتحدرون من ام « قديمة » معينة . وكثيراً ما كان يطلق على هذه الام القديمة اسم من اسماء الحيوانات التي كانت تتفاءل بها اثناء الحمل كالظرافة والسلحفاة والذئبة ... ولا بأس فالعهد عهد الصيد البري . بل هنالك صبايا زماننا اللواتي يحملن الى اليوم اسماء بعض الازهار والاشجار : وردة ، قرنفلة ، سروة ، ياسمين ... فاسماؤهن هذه – ان لم تمتّ اليهن بصلة في كثير من الاحيان – فلعلها تمت بصلة على الاقل الى زراعة ذلك العهد .

وهكذا كان يسمى الجانس باسم الام القديمة ، فيقال : جانس ظرافة او ذئبة ، وابناء او بنات سلحفاة ... لان التزاوج كان حلقياً كما رأينا والاب غير معروف ، فيتبع الابناء والبنات جانس الام التي تحدروا منها .

وبعد ان كان مسموحاً في الحلقة التي انبثق منها الجانس ان يخالط ابن امرأة من هذه الحلقة ابنة امرأة ثانية من الحلقة نفسها ، اصبح لا يجوز لابناء الجانس الواحد مخالطة بنات جانسهم بل بنات جانس آخر . اي ابناء جانس ظرافة يتزاوجون من بنات جانس سلحفاة ، وابناء جانس سلحفاة من بنات جانس ظرافة او غيره ، ويؤلفون حلقة جديدة .

وكانت قبيلة الصيادين تتألف من جانسات – عائلات رحمية او

بطون – عديدة . اما التقاليد التي كانت تسود الجانس فهذه اهمها :

١ – على كل جانس ان ينتخب ممثله او ممثلته لادارة شؤون القبيلة . وممثل جانس ظرافة ينبغي ان يكون من ابناء او بنات جانس ظرافة . وهذا الممثل او الممثلة تنتخبه الرجال والنساء معاً في الجانس .

٢ – يستطيع الجانس عند اللزوم ان يسحب ثقته من ممثله فيخلعه . وذلك بتصويت عام تقوم به نساء الجانس ورجاله . ثم يصار الى انتخاب غيره . و « مجلس القبيلة » المؤلف من ممثلي الجانسات يستطيع ايضاً خلع احد الممثلين ان لم يقم هذا بواجبه كما ينبغي .

٣ – لا يجوز لابناء الجانس وبناته ان يتزاوجوا فيما بينهم مهما بعدت قرابتهم ...

٤ – الذين يموتون تعود اشياؤهم لجانسهم .

٥ – اعضاء الجانس يتعاونون في شؤونهم . ويحمي الجانس اعضاءه اذا اهين احدهم او قُتل : اهانة الفرد تعد موجهة الى المجموع .

٦ – اسرى الحرب يتبناهم الجانس ويعيشون كاحد اعضائه . ذلك قبل توطد نظام الرق .

٧ – مقبرة الجانس مشتركة فيما بين اعضائه .

٨ – ملكية الجانس ملكية مشتركة ...

تلك اهم تقاليد الجانس . ولم يكن فيه مال ولا قروض ولا ديون ولا ضرائب ولا آلة ضغط حكومية بيد طبقه سائدة – لانه لم يكن ثمة من طبقات ولا استثمار انسان لانسان – بل كانوا يعملون بصورة مشتركة ويستهلكون نتاج عملهم مشتركين . وكان دور المرأة في العمل الاجتماعي مساوياً لدور الرجل ، فكن ناخبات ومرشحات لمجلس القبيلة الاعلى . وبقيت الحال على هذا النحو حتى نشأ – بعد تملك الجانس المشترك – التملك الفردي ، تملك كبير العائلة الجانسية بدأة ذي بدء ،

هذا التملك الذي راح يسجل تاريخ عبودية المرأة على الرغم من كونه تقدمياً وضرورياً لان المرأة امست في ظله متاعاً من امتعة الرجل السيد او متعة من متعاته ، تباع وتشرى .

ان نمو التملك الفردي اخذ يضيّق حلقة التزاوج حتى اصبحت حلقة تزاوج فردي: زواج الرجل بامرأة واحدة. لكنه لم يكن ثابتاً في اوائل عهده ، بل كان ينحلّ احياناً بسرعة ويتبع الاولاد امهم . وعندما ترسخ التملك الفردي اصبح الزواج الفردي اثبت من ذي قبل ، واصبح الناس يقولون : هـــذا ابن فلان ، ولا يقولون ابن فلانه ... واضحت العائلة الفردية وحدة المجتمع الطبقي الاول ، وان شكلياً الى حد .

ذكرنا عدة اشكال من التي عرفها تطور العائلة تاركين اشكالا اخرى كتعدد الزوجات، وتعدد الازواج ...اما اصلح تلك الاشكال واعدلها جميعاً فهو الزواج الفردي وان يكن في تلافيفه جرثومة زنى نهشته منذ عهده الاول نهشاً ذريعاً . ولا عجب فهو ثمرة التملك الفردي الاستثماري، ثمرة النظام الطبقي الاول ، نظام الرق . فهذا النظام جعل المرأة رقيقة ، بضاعة يهيئها ذووها لمن يحمل المال ... وللسماسرة – النخاسين – دور كبير في هذا النوع من التبادل البضاعي . ولكل بضاعة سعر . كل شيء في المجتمع الطبقي يجبرها ان تبيع « نفسها » لمن معه المـــال ، لمن يملك وسائل انتاج ... وهي مجبرة ان تزين جسدها بازياء لا تليق بها احيـاناً كثيرة ، والا كسدت بضاعتها . وليس بوسعي ان استثني اليوم من النساء الا اللواتي في قلوبهن فضيلة الثورة على الذل والأباطيل .

الزواج في المجتمع الطبقي مبني على اساس طبقي . كل يتزوج – عادة – من طبقته . في الطبقات المالكة وسائل الانتـاج او الموسرة تلعب الثروة غالباً الدور الاول في الزواج وليس الحب : وهذا عش قائم من اعشاش الزنى . وفي الطبقات المحرومة ، كطبقة الارقاء وكالفلاحين

بما فيهم مستعبدو النظام الاقطاعي وطبقة العمال في المجتمع الرأسمالي ، يلعب الحب الدور الاول في الزواج وليس الثروة ، اذ لا وجود لهـــا . لكن الحاجة كثيراً ما تصارع هذا الحب فيما بعد وتنهكه وتمرغه . ومعلوم أن الحاجة وليدة تمركز الثروات وان مصائب الناس ليست من وراء الغيم : « يا رب لا تجعلني غنياً ينساك ولا فقيراً يكفر بك ! »

ولن نتكلم – في نظام الرق والاقطاعية الخ – عن افتراس الاسياد لرقيقاتهم وفلاحاتهم الجميلات ؛ ولا نحن بمتكلمين ايضـــاً – ويا لسخرية التاريخ وانتقامه – عن ولوع السيدات بالفلاحين او بالارقاء المفتولي العضلات الذين جيء بهم من كل حدب وصوب الى رومـــا مثلا والذين تحرروا فيما بعد واصبح لهم الحق ان يتزوجوا من بنات الذئبة ، من حرائر روما ؛ ولا عن « سوق العاطلات » وفيها فئة من ضحايا المجتمع الطبقي ، تلك السوق التي يعود اصلها الى معابد الاقدمين ايام كانت الصبايا الراقصات يستسلمن في الهياكل لقاء اجور تدخل صناديق المعبد الوثني الذي يتذوقن اللذات فيه ... بل نرجو من الناسجين على منوال المرحومين « الدوتشي » و « الهر » ان يخبرونا من اي عرق هم ومن اي لقاح !

ان العائلة في النظام الطبقي – وان تكن بمظهرها مبنية على الزواج الفردي – فكثيراً ما ترينا اولاداً كازهار الحقول اشكالا والواناً ... اولاداً لا يسلمهم « ابوهم » شيئاً من ثروته ليشتغلوا لانه لا يثق باستقامتهم – وهو محق في كثير من الاحيان – فيتمنون والحالة هذه موت ابيهم ليرثوه ويتخلصوا من شكله ، شكله الذي ما اكثر مـــا تتسلى عنه السيدة الارستقراطية ، امهم ، بكلب وثير لعوب .

وقاكم الله ايها الناس من شرور الثروة . فاذا شئتم ان تستريحوا في هذه الحياة اياكم ان تمعنوا باقتناء الفضة والذهب . اي تشبهوا بالسيد المسيح او بي ، فليس من كبير فرق بيننا من هذه الناحية !

اجل ، لن تزول هذه المهازل ولن يتلاشى الزنى من تلافيف الزواج الفردي على الرغم من « الاقفال الحديدية » التي استعملها فرسان القرون الوسطى الا بزوال اساسه او قطبي اساسه : التمركز والحاجة . اي لا يزول الزنى من الزواج الفردي ـ ولونسبيا ـ الا بعد ان يزول الاستثمار من التملك الفردي. يزول الزنى وتبقى العائلة الفردية صحيحة الاساس راقية جميلة .

عندئذ لن ترى عيناناً كاهنا يكلل فتىً على عجوز دردبيس قائلاً : « ما ازوجه الله لا يفرقه الانسان ! »

منشأ المعتقد الديني

وتطوره

رأينا كيف كانت اشكال التزاوج تنطبق بخطوطهـا الكبرى على اشكال العمل التي عرفها الاقـدمون ، او على اشكال التملك اذا شئت . فالرحّل الذين عاشوا على الاثمار ولا اثر للعمل المنظم فيما بينهم كان تزاوجهم خليطاً كحيوانات البرية : كل الثمار ثمارهم . والصيادون الذين عاشوا على عمل مشترك منظم بمقدار اصبح تزاوجهم حلقات مستقلة الواحدة عن الاخرى وفيها شيء من الانتظام ليس بقليل بالنسبة لما قبل . والعمل المبني على التملك الفردي قادهم الى الزواج الفردي .

كل تطور يطرأ على اساس العمل الانتاجي – ولا سيما على العلاقات الانتاجية – يحدث عاجلاً او آجلاً تطوراً متفاعلاً بينـه وبين الميدان الفكري والاجتماعي . رأينا ذلك في لمحتنـا عن العائلة وسنراه في كلمتنا عن نشأة المعتقد الديني .

لم تكن المعتقدات « الدينية » موجودة منذ البدء . لكنها كانت – منذ نشأتها – مظهراً لعدم فهم الانسان للظواهر الطبيعية ولعجزه تجاه قوى الطبيعة . فجعل يتخذ آلهتـه من الاشياء ومن الحيوانات والناس . وكلما فهم الانسان ظاهرة من هذه الظواهر او تغلب على قوة من هذه القوى كان يموت اله من آلهته .

لم يكن دين البشر دائمـاً كما هو اليوم . بل لم يكن له من اثر في حياتهم الوحشية ايام عاشوا على ثمار الغابات وما قبل . فلما بدأوا يعملون ،

يشتغلون لايجاد معيشتهم ، في صيد الاسماك او بعض الحيوانات كالبزاق او التي يدرأونها عن انفسهم، او قطع بعض الشجيرات او الاغصان لصنع حرابهم ، اخذت اعمالهم هذه ـ مع التكرار ـ تؤثر بهم ، تضرب دماغهم وتثير تفكيرهم، وليس كالعمل ما يثير التفكير ويغذيه. رأوا مثلاً كيف كانت تلك الحيوانات تركض مثلهم في الفضاء او في الماء ثم هي تسقط لا حراك بها وشيء يخرج احياناً منها وهو مثلا دمها . رأوا كيف كان ذلك الغصن او تلك الشجيرة ناميه ظليلة ثم هي تذبل وتيبس غب فصلها عن امها الارض . فاستمرار امثال الحوادث هذه الواقعية الناجمة عن عملهم وغير المفهومة وقتذاك لديهم كان يرتسم في دماغهم ويجعلهم يفكرون ، يفكرون بذواتهم ايضاً ، بداخلهم ، ويتساءلون : لماذا لم يبق في وسع هذا الحيوان مثلا ان يقوم ويهرب ؟ لماذا غط في نوم عميق ؟ وهم كذلك يغطون في نوم عميق ويرون في نومهم انهم يقومون باعمال عديدة يستدعيها صيد السمك ومكافحة الحيوانات في الغاب واضرام النار للتدفئة والشيّ. حياتهم الواقعية ترتسم في دماغهم وهم نيام . لكنهم لا يفهمون ذلك ، لا يفهمون الجهاز العصبي، بل جعلوا يظنون ان فيهم ، في داخلهم ، شيئاً آخر ـ فيهم « آخر » ـ يخرج منهم اثناء رقادهم ويقوم بالاعمال التي يقومون هم بها : فهو بحاجة مثلهم الى الاكل والشرب واللذة ..! ولماذا لا يكون لحيوانات البرية والاسماك والاشجار « آخر » ؟ لا محالة الا ان يكون لكل شيء في الطبيعة آخر ، كما لهم. آخر يخرج الى العمل اثناء نومهم ونوم الكائنات .

ثم ـ بعد ذلك ـ لماذا لا يشبه هذا « الآخر » النسيم الذي يحسون به ولا يستطيعون ان ينظروه او ان يقبضوا عليه . بل لماذا لا تكون هذه النسمات اسراباً من « الآخرين » او من الاطياف تذهب مثلهم الى العمل بصورة اجمالية ؟

ان العمل ـ صراعهم مع الطبيعة ، مع الخارج ـ جعلهم يفكرون

بذواتهم ، بداخلهم . لكنهم لن يفهموا داخلهم ما لم يفهموا خارجهم . ولن يفهموا ما وراء الطبيعة ان لم يفهموا الطبيعة .

قلنا كل شيء له « آخر » وهذا الآخر يشبه النسمة . اذن لكل شيء نسمه او روح . ولم يكن للروح وقتذاك هذا المعنى الذي زينها به المجتمع الطبقي . بل كان معناها النسمة او الاخر او الطيف . وكانت تعيش حياة واقعية كما يعيشون هم في غاباتهم . تعمل كما يعملون . فاذا ناموا ساعتين تسرح هي ساعتين . واذا ناموا طول الليل تسرح ايضاً طول الليل . واذا ناموا النوم الطويل تذهب الى اعمالها مدة طويلة ... وهذا ليس خلودها بعد . فخلودها لم يكن يهم احداً في تلك المرحلة . اما الاعتقاد بخلود الروح فقد ساد بين قسم من الناس في النظام الطبقي الاول كضرورة ذات فوائد اجتماعية طبقية . وقد اعتقدوا « عهد ذاك » بخلود نظام الرق ايضاً ... وكانت فكرة خلود الروح تقع على الارقاء ليس كتعزية كما هي في ايامنا بل كشيء مزعج ، مخيف ، تطول معه مشقاتهم وآلامهم .

في الصيد البري كانت فئة من الكهول الصيادين تمتاز بما لديها من خبرة بجيل الطرائد ، فلا تنقل تجاربها الى الشبان الا في احتفالات خاصة . وكثيراً ما يكون لهؤلاء الكهول حصة ممتازة من الصيد يفتخر بها الشبان لديهم . وبين الحيوانات نفسها فئة قوية صوّالة وفئة عادية لا تخشى صولتها . فلماذا لا يكون ايضاً لاولئك الكهول المميزين بخبرتهم وبأسهم ولهذه الفئات الصوالة من الحيوانات « آخرون » او ارواح اقوى من غيرها وتخشى صولتها وينبغي استرضاؤها كما يوجد ارواح اخرى عادية سهلة الانقياد ؟

المميزون اقلية لكنها قوية . وكذلك الارواح المرهوبة الجانب والتي سيصبح بعضها آلهة « الميتولوجيات » ثم يتطور فيما بعد ، مع تطور دور

الرجل ، الى آلهة جبارة في نظام الرق ترتجف الارض لحمو غضبهم وتتدلدل كعرزال الناطور .

وهل للسحر غير هذه الاسس ؟ انه يرتكز – في جماجم السحرة – على امر الارواح العادية ونهيها واسترضاء الارواح الصوالة والخوف من حمو غضبها .

وكلما ترعرع التملك الفردي الاستثماري والطبقات ترعرعت هذه المعتقدات واصبحت ديانات جذور اكثرها في حقلي السحر وعبادة الحيوان .

لكن الآلهة في اواخر عهد الصيد البري وتربية المواشي ورعيها كانت لا تزال على الارض . واذا ارتفعت فالى رؤوس الجبال . كانت من الحيوانات ومن بعض الاشياء كالشجر والنار ومن بعض الناس ، اناثاً وذكوراً . عبادة الاشخاص قديمة ! وعندما اصبحت الزراعة الفرع الانتاجي الارجح وعليه تتوقف بحبوحتهم او جوعهم الى حد كبير – وحياة المزروعات وموتها يتعلقان بدورهما ، بالطقس بالجو – شرعت بعض عبادات البشر تنتقل لاول مرة الى ذلك الجو ، فعبدوا فيما عبدوه او الهوه : الشمس والكواكب والرعد والرياح ، وقدموا لها القرابين والذبائح حتى من ابنائهم وبناتهم ؛ والا تغضب الآلهة الجوية وتدمر مزروعاتهم وتأمر الانهر والعواصف فتنفلت مزمجرة تبدد سائر اتعابهم .

ولما جعل المجتمع الطبقي ينتقل من مرحلته التقدمية الى المرحلة الرجعية ، مرحلة الاستثمار الضاري ، لم تكتف الطبقة السائدة بما لديها من سلطة او قوة حكومية تضغط بها الاكثرية الساحقة المحكومة لتظل هذه تكدح في خدمة الاسياد – فالكادحون المظلومون يتمردون ويثورون – بل رأت ان تستخدم قوة اخرى ، قوة معنوية ، سكراتها وغيبوباتها عجيبة بتخدير القلوب واستعباد البصائر ، فيها الترغيب الساحر بما « فوق » الارض والتهويل الراعب بما « تحتها » : وهذه القوة هي « قوة الكهنة »

ـ الاقدمين طبعاً ـ وما في يدهم من سلطان لدى الارواح الصائلة وغير الصائلة .

وبعد ان كانت « سماء » الصيادين هنا ، على الارض ، تعيش فيها الاطياف او الارواح حياة واقعية ـ حياة عمل فاستراحة ولذة كحياتهم اليومية ، اذ تمضي اسراب تلك الارواح الى الصيد مثلاً بصورة اجمالية وتأكل وتشرب وتسرح وتمرح ـ نقلها عهد الزراعة الى مناطق غائمة الابعاد في الجو . وبعد ان كانت سماؤهم تلك مجانية لجميع الناس دونما استثناء اصبحت في تلك المرحلة من النظام الطبقي الاول لا ينالها الناس الا بالاستحقاق . ولها حراس وحجاب ولا يدخلها الا الذين آمنوا بهذا التطور السماوي الجديد وكان سلوكهم على الارض صالحاً . اي الذين يخدمون اسيادهم بجد ونشاط واخلاص وطاعة ... ولا يتمردون عليهم ولا على سلطتهم : لان السلطة كانت من الله قبل ان كان المرحوم « بوسويه »... ولا يقتل بعضهم بعضاً : لان الخسارة تقع على السيد اذ يخسر رقيقه او بضاعة تنتج له بضائع ، لا سيما اذا وقع القتل عليه هو نفسه . ولا يسرقون : فيخسر السيد ، لان الارقاء وما في يدهم ملك له ...

مثل هؤلاء الابرار كانوا يستحقون النعيم ، بعد الموت !

وان لم يؤمنوا ولم يطيعوا ، فماذا تكون عاقبتهم ؟ على الارض نعرفها . ولكن ، ما وراء الهضبة ؟ شيء جديد لم يسمع به مجتمع الصيادين ، شيء جد ضروري للمجتمع الطبقي الاول : وراء الهضبة جهنم... النار الابدية التي لا تطفأ ، الافاعي الكريهة الشكل التي تدخل من الفم وتمد رؤوسها من ثقبي الانف والعينين والاذنين وتمعن نهشاً بالسرة والثديين ... وانت يا امرأة السيد ، هذا ما يحل بك اذا اشتهيت رقيقك الساحر العينين .

وما كان اشبه آلهة الميتولوجيا المتطورة وما حولها من حاشيات ومن جنود غير منظورين لا يقعون دائماً تحت الحس بملوك الارض وحاشياتهم

وبوليسم او تحريم الذي قلما يقع هو ايضاً تحت حس . وما اشبه تفاوت الدرجات بين سكان سماء النظام الطبقي الاول بتفاوت درجات الناس وطبقاتهم فيه. وما اشبه جهنم بالسجون : فهنالك توجد الآلهة بغضبها وهنا الملوك ـ نحن في نظام الرق ـ باستبدادها ومظالمها . وباختصار : ما « كان » اشبه السماء بالارض !

ايجوز ان تبقى السماء الى الابد على هذا الشكل المتأخر ؟ كلا ، فسرعان ما جاء اللاهوت ورقاها واعطاها الشكل النهائي .

وكانت المرأة قديماً تجلس في مصاف الآلهة . كان منهن الاهات : الاهة الجمال ، والاهة الصيد ، والاهة الحكمة وهلم جرا . ذلك عندما كان دورها في العمل مساوياً لدور الرجل . حتى كليوبطرا المغربية الشهيرة ادعت في زمانها ، امس ، انها ليست من سلالة البشر بل من اعراق الالهة. ادعاء كان للشهيرين والشهيرات في ذلك العهد لا يزال زيّاً من الازياء... ولكن عندما امسى دور المرأة في العمل ـ على الارض ـ في الدرجة الثانية ، نزلت عن عرشها السماوي وامسى دورها في الدرجة الثانية « فوق » ايضاً ، كما هو تحت ، على الارض : قديسة اوذات شفاعة . ولم يبق في السماء الاهات ـ ويا خيبة آمال الشعراء ـ بل آلهة ذكور ...

وما الاساطير التي سبقت قصة آدم وحواء ، وكانت بمعناها ، الا من نتاج تلك المرحلة التي اخذ فيها دور الرجل يتغلب على دور المرأة . وعلى عاتق المغلوب تقع سائر الذنوب : فامست سبباً لمشا كل البشرية جمعاء ، وامست ضلعاً مسحوبة من خاصرة الرجل بعد ان كان الرجل كله مسحوباً من خاصرتها ... وحتى كهنة ذلك الزمن جعلوا يترفعون عنها وينذرون العفة . وكم من مرة اختلفوا فيما اذا كان لها روح ... واخيراً قرروا ان يكون لهـا ! والذي تكرموا به على روحها اكلوه من عقلها . وبقيت المسكينة « بربع عقل » الى اليوم، بسلامة عقول الرجال.

نضال الطبقات

بزعزع نظام الرق

لنعد الى نظام الرق الذي تركناه بعد ان ظهرت طبقتاه الرئيسيتان، وبعد ان ترعرعت فيه السلطة الحكومية ، آلة الضغط المدافعة عن مصالح الناس – اي الاسياد – ضد الارقاء والجماعات المتوسطة الحال ، وبعد ان عرفنا شيئاً عن الاستثمار والاستعباد الوحشيين اللذين قاستهما طبقة الارقاء وحلفاؤها ابناء الجماعات المتوسطة الذين كانوا يقعون في الفقر من جراء تمركز الثروات وفي الرق لعجزهم عن دفع ديونهم ، وبعد ان أخذ النضال الطبقي يذر قرنيه . ولنأخذ رومـــا التاريخ المكتوب كمثل لاستئناف كلامنا .

كانت روما باسطة سلطانها الاستيلائي على اكثر البلدان الواقعة في حمي حوض البحر المتوسط ، تمعن في نهبها واستعباد سكانهـــا وسوق الكثيرين منهم ارقاء الى داخلها . وكانت تقذف بالمئات والالوف من هؤلاء الارقاء – سواء أمن ابنائها كانوا ام من الغرباء – الى شق الطرق الحربية وبناء الجسور والقلاع والهياكل والمراكب البحرية وصنع الاسلحة وما الى ذلك . انها منهمكة بحروب مستمرة مع بلدان لم تخضع بعد لنيرها كالبرابرة الجرمان

هذا من جهة . ومن جهة ثانية فقد كان فن العمل الزراعي باقياً على حاله – على مستواه القديم – بل راح ينحط يوماً بعـــد يوم . وكثير من

الاراضي امسى مهملاً من جراء تشغيل القسم الهائل من الارقاء في شتى الطرق الحربية وغيرها . والعمل البدوي في المدينة اخذ يتلاشى ، والاحرار يحتقرون العمل ... فقلت البضائع ، واضمحلت التجارة او كادت ، وساد الارتخاء والجمود سائر ميادين العمل المنتج . وجهرات الارقاء الذين تشغلهم في الزراعة راحت ترهقهم اكثر فأكثر لكي يسدوا حاجات الظروف الحربية والاجتماعية المتعاظمة ؛ ولكن هيهات ان يفيدها ذلك .

ان هذا الجمود الاقتصادي في الداخل قد حدا روما الى تشديد الضغط والاستثمار خصوصاً في البلدان التي تحت سيطرتها : فكانت النتيجة ازدياد النضال الطبقي والاستقلالي احتداماً في الداخل والخارج . وراحت التمردات والثورات تنفجر بين الحين والحين هنا وهناك ، ولا سيما تلك التي اصلاها الرقيق اليوناني « سبارتاكوس » مناضلا اسياد اليونان واسياد روما معاً .

ويجمل بنا ان نذكر اهم هذه التناقضات التي ظلت تترعرع عدة اجيال في قلب الامبراطورية الرومانية حتى ادت الى تصديع اركانها :

١ – التناقضات الداخلية : بين اسياد روما وارقائها ، يدعم هؤلاء حلفاؤهم من « احرار » الجماعات المتوسطة الحال .

وهنالك التناقضات بين اسياد روما انفسهم ، والدسائس والاغتيالات التي كان يدبرها بعضهم لبعض .

٢ – التناقضات الخارجية : بين اسياد روما و « ارقائهم » في البلدان الواقعة تحت النير الروماني والتي تريد الخلاص من هذا النير الضاري . ونذكر في هذه المناسبة نضالات لبوءتي شرقنا : كليوبطرا وزينب التدمرية .

وهنالك التناقض بين اسياد روما وقوادهم الذين في الخارج والطامحين

للاستئثار بالحكم والسيطرة وبنهب البلدان الخاضعة .

نضال بين اسياد روما وارقائها في الداخل والخارج . فارقاء روما والبلدان الخاضعة عدوهم واحد ، هو اسياد روما . كل فشل للارقاء في الداخل هو في الوقت نفسه فشل للبلدان الخاضعة . وكل فشل تلقاه هذه هو فشل لارقاء روما في الداخل ايضاً . وكل انتصار لفريق من هذين الحليفين الطبيعيين هو انتصار للاخر أشاء ام أبى. فالاسياد الرومان لم يستطيعوا استعباد البلدان الاخرى على هذا الشكل الا عندما اوقعوا قسماً كبيراً من ابناء روما انفسهم ـ نساء ورجالاً ـ في حالة الرق : « الشعب الذي يستعبد شعباً آخر لا يمكن ان يكون هو حراً » .

بذور الاقطاعية

تنمو في صدوع نظام الرق

قلنا ان طرائق الانتاج الزراعي باقية على مستواها القديم بينما اصبحت ظروف روما بحاجة قصوى الى فن انتاجي جديد يساعدها على سد حاجاتها المتعاظمة . وقلنا ان الاستثمارات الزراعية الكبرى المبنيه على عمل ارقاء مرهقين يشتغلون لغيرهم امست عقيمة بالنسبة لحاجات الظروف الجديدة ، وان الكثير من الاراضي بات مهملا ، وان العمل اليدوي في المدينة يتلاشى وكذلك التجارة واسوافها ، وان الاحرار الرومان عامة يقدسون الحرب والنهب ويحتقرون العمل ... فاصبح على الانتاج القديم العقيم ان يزول ويحل محله طرائق انتاج جديد ارقى ، ومكان استرقاق الانسان للانسان حرية بالنسبة لظروفها ارقى هي ايضاً .

وكان ارقاء روما ـ بفضل هذه الظروف وبفضل ثوراتهم وثورات البلدان الاخرى ـ يتحررون شيئاً فشيئاً وينتزعون حقوقهم مع الوقت الواحد تلو الآخر . فحاول الاسياد ان يثبتوا سلطتهم ببعض اصلاحات اضطرتهم اليها تلك الظروف المضطربة فجعلوا يوسعون بعض الشيء حركة تحرير ارقائهم : يسلمونهم او يملكونهم قطعاً من الارض . فاصبح بعض هؤلاء اقناناً لا يحق للسيد ان يبيعهم مستقلين عن الارض بل تبعاً لارضه لانهم يشتغلون عليها ولهم حق بشيء من حاصلها . كما اصبح بعضهم احراراً يمتلكون ، او يملكهم السيد قطعة ارض على حدود الامبراطورية اذ قد

يدخل عدو خارجي فيلقى في وجهه ملاكين يذودون عن ارضهم بالارواح لا ارقاء ليس يهمهم الامر . ومع ذلك فقد بقي قسم كبير منهم ارقاء .

وهكذا لم يعد للسيد ـ مع الايام ـ حق الحياة والموت على الرقيق . ولم يبق هذا في النهاية رقيقاً بل اصبح حراً ، له حق التملك والدفاع عن نفسه في المحاكم وتأليف عائلة وما الى ذلك ، اي اصبحت جماهير الارقاء المجلوبين من كل بلاد الى داخل روما ـ وحتى بعض امبراطرتها كان من اصل اجنبي، لبناني او سوري مثلا ـ يتزوجون من حرائر الرومان . ولا شك ان حرائر الرومان يلدن : ولولا ذلك لما عرفنا اهمية النظرية المرتكزة على العرق ووحدة الدم !

والتطور حتمي لا يستشير احداً ، لا الاسياد ولا الارقاء . يسير في مصلحة فريق دون فريق على الرغم من ارادة الطرفين ومن امكان تأثيرها الموقت... لذلك كانت محاولات الاسياد لتثبيت سيطرتهم تذهب ادراج الرياح . والارقاء يتحررون رويداً رويدا (على الرغم من الذين حاروا ماذا يصنعون بالحرية واين يشتغلون) ويمتلكون قطعاً من الارض: اي يصبحون فلاحين !

ولم يكن سبب تحريرهم اخلاقياً او سياسياً ـ كحاجة السيد الى احرار يصوتون له ، اذ ان للحر وحده حق التصويت ـ بل كان سببه الجوهري ضرورة اقتصادية ادى اليها تطور نظام الرق ، تطوره لدرجة التفسخ والخمول دون تقدم الانتاج ، فأصبح من اللازم اللازب تغيير العلاقات الانتاجية اي نيل الرقيق المملوك ـ الذي لا يعمل لنفسه ـ حق التملك . وهذا غير ممكن الا اذا تحرر : والحرية ليست في الورقة التي يلقيها الرقيق في صندوق الاقتراع ، انها لم تكن إلا على رؤوس حرابهم .

وهذا ما نقصد عندمـــا نقول : الثورة هي التي تحررهم او تعمل

لتحريرهم . اما الثورة بحد ذاتها ـ وان تركت أثراً ـ فهي انتحار موقت للطبقات او للشعوب المظلومة الا اذا نضجت ظروفها . وكم اصلى ارقاء روما من ثورة قبل اوانها في الداخل او في الخارج ، فأغرقتهم روما بدمائهم . و « من استعجل الشيء قبل اوانه عوقب بحرمانه ! »

لم تنهدم الامبراطورية الرومانية بعد ، لكنها كانت سائرة سيراً حثيثاً الى الانهيار تحت ضربات النضال الطبقي . اما الذي عجل هذا الانهيار فهو غزوات البرابرة الجرمان ، وكانت روما في حرب معهم منذ قرون لاخضاع بلادهم واسترقاقها ونهبها .

واخيراً انهدمت تلك الامبراطورية الضخمة امام هجمات الارقاء من « الداخل والخارج » وانفسح المجال لانبثاق المجتمع الاقطاعي ، المبني اقتصادياً على الانتاج المتوسط والصغير في القرية والمدينة .

المجتمع الاقطاعي

هو المجتمع الثالث او ثاني مجتمع طبقي . نشأ في صدوع المجتمع الذي سبقه وظل يترعرع حتى اجتاحه بثورة او بثورات .

وكان للقائد العسكري ـ الجرماني مثلا ، عندما غزوا روما ـ حصة الاسد من الاراضي التي يستولي عليها جيشه . فيوزع قسماً على القادة الاخرين ، حسب درجاتهم العسكرية ، وعلى مقربيه .

فمن جهة ، اصبح لدينا في مستهل العهد الاقطاعي قائد اعلى ـ او ملك ـ وحاشيته المؤلفة من الاشراف ومن كبار الاكليروس وكذلك من بقايا النظام المهدوم : لا بأس بهؤلاء الاخيرين ما دامت الاقطاعية ، على كل حال ، نظاماً طبقياً هي ايضاً .

واصبح لدينا ، من جهة ثانية ، في القرية : جماهير الفلاحين . وفي المدينة : جمهرة من الصناع والمشتغلين في اعمال حرفيه متنوعة .

وكانت تلك المرحلة ـ منذ انهيار الامبراطوريه الرومانية في اواخر القرن الخامس الى ظهور الاقطاعية حوالي القرن التاسع ـ مليئة بالقلاقل والحروب ، مما اضطر كثيرين من الاقنان الذين صاروا فلاحين ومن الفلاحين الصغار والمتوسطين ان يضعوا قطعة ارضهم تحت حماية احد الاقوياء . فيصبح هؤلاء الاقوياء اصحاب تلك الاراضي ، تاركين لاصحابها الاصليين حق استغلالها مدى الحياة فقط . غير انه لم يكن يحق للسيد بيع قطعة الارض تلك . لا يحق له الا بيع ارضه الواسعة اذا شاء .

اجل اصبح لدينا طبقة اسياد اصحاب اقطاعات ضخمه من الارض ،

وفلاحون يعملون في اراض متوسطة او صغيرة هي ملك لهم ؛ بيد ان عليهم تجاه اسيادهم واجبات اقطاعية سنلم ببعضها في طريقنا .

وكان هذا النظام لمرحلة ما تقدمياً وضرورياً لاحياء الاراضي التي اهملت إبان انحطاط النظام السابق ولتطوير شتى وسائل العمل وادواته .

ان انتاج النظام الاقطاعي ـ بشكله العام ـ انتاج طبيعي ، اي للاستهلاك : لم يكن المجال منفسحاً فيه بعد للانتاج البضاعي ـ الذي غايته التبادل ـ لان التجارة واسواقها ، ما عدا الاتجار بالكماليات ، قد عراها التلاشي منذ مرحلة الانحطاط في نظام الرق . وكان النظام الاقطاعي نظام الانتاج المتوسط في القرية . ثم اخذ ينمو في المدينة الانتاج الحرفي المتوسط ايضاً . والقرية اذ ذاك سيدة المدينة . ولكم جاهدت هذه للتحرر من سيطرة سيدتها : وبعد نضال طويل النفس تمتعت بشيء من الاستقلال الذاتي .

اما استثمار الاقطاعي للفلاح في اوائل هذا النظام فكان على عدة اشكال ، منها : أن يشتغل الفلاح على قطعة ارضه المتوسطة او الصغيرة قسماً معيناً من ايام الاسبوع ، والقسم الثاني على ارض السيد مجاناً . هو حق من الحقوق الاقطاعية او واجب على الفلاح تجاه السيد : واجب السخره ! لكن الحالة لم تبق على هذا الشكل . فعندما رأى السيد أن ارض الفلاح يعتنى بها اكثر من ارضه وضع ارضه ايضاً تحت تصرف الفلاح ... اي بدأ يضع الفلاح تحت تصرفه على ان يقيم هذا ارض السيد الاقطاعي لقاء جزء معين ـ ضئيل ـ يأخذه من الحاصلات والباقي يقدمه لسيده .

وكانت البلاد نفسها ـ كل بلاد ـ مقسمة الى مناطق اقطاعية مستقلة . وكل اقطاعي « ملك » في منطقته وعلى ارضه الضخمة . لكل جيشه الخاص او عصابته . هي للتعدي ساعة يشاء . ولكل سيد مكاييله واوزانه ونقده ...

لكن التبادل ، بعد ان كان ذا طابع محلي محدود يجري بين المدينة والقرى المجاورة لها وليس بين مختلف اقطار البلاد الواحدة ، اخذ ينتعش وينمو بنمو الانتاج الحرفي في المدينة . لذلك وجب بنظر الاسياد تقييد هذا الانتاج بقيود شديدة منعاً للزاحمات ولهجرة الفلاحين الفقراء من القرية الى المدينة . واوضح شكل لهذا التقييد لجان الحرف التي هي - في المدينة - جزء متمم لاقطاعية القرية .

تألفت لجان الحرف من معلمين - ارباب كار - ومن تلامذة او صناع . ولا يصبح التلميذ معلماً الا بعد ان يخدم مدة غير قصيرة وبعد ان يقدم تحفة فنية من صنع يده للمعلم ، مع شتى الترضيات . اما ابناء المعلمين فليسوا بحاجة الى مثل هذه المتاعب . ثم اصبحت البيرورة معلماً صعبة جداً ومتعلقه بموت احد المعلمين .

ثم لا يحق لذي حرفة ان يتعاطى حرفة غيره ، كأن يقوم الخياط احياناً بعمل الرفاء ، اي يرفو الثياب العتيقة . فالمشاجرات والدعاوى التي نشبت في فرنسا مثلاً بين الرفائين والخياطين مشهورة ، وقد دامت منذ اوائل القرن السادس عشر الى اواخر القرن الثامن عشر .

وكانت مجالس لجان الحرف توجب على الحرفيين ان يتقيدوا في انتاجهم الحرفي بنوع الاشياء المصنوعة او المنتجات وبكميتها ولونها وقياسها من طول وعرض الخ . ومن خالف احد هذه الشروط فله الويلات ، نصيبه القصاص الوحشي ونصيب مصنوعاته النهب او الحريق .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان التبادل ينمو ويتنفس - وان ببطء واحدة وبصعوبة - وتنمو معه التجارة وطبقة من التجار .

وكان التجار يذوقون الامرّين اثناء مرور قوافلهم في مناطق الاسياد الاقطاعيين لما يلحق بهم من ضرائب هؤلاء وتعديات عصاباتهم المنظمة وغير المنظمة . اليس من الافضل ان تكون البلاد موحدة الاجزاء ؟

يجب البدء اذن باستغلال الخصومات الناشبة بين الاقطاعيين انفسهم ، لاضعافهم والتوصل الى هدم استقلال مناطقهم .

التجار يقولون : نريد بلاداً موحدة الاسواق . ويصيح الكتّاب والشعراء : نريده وطناً موحد الاشواق ! شيء بديع : فالفريقان لا يؤمنان ان ليس بالامكان افضل مما كان ...

لم يكن التجار وحدهم في استياء من استبداد الاقطاعيين . ان كابوساً عتياً ينيخ بكلكله على صدور الفلاحين في القرى ، وعلى اكتاف الصناع والحرفيين بسبب تلك اللجان الخانقة بقيودها . لكن الفلاحين كانوا يذوقون آلام الشهداء ، مادياً ومعنوياً .

ان الفلاح وامرأته وبناته وابناءه ودوابّه يكدحون طوال السنة لقاء جزء ضئيل من ثمرات اتعابهم . جزء ضئيل لكبار الاكليروس ايضاً حصة فيه اسمها العشر . ولهم كذلك غير العشر . لهم اراضيهم الضخمة واستثمار الفلاحين ونسائهم وبناتهم وابنائهم فيها . والا فكيف يوطدون ملكوت الله على الارض ؟ وماذا يحل بالشعب فيما لو زالت السلطة او الطبقة الاقطاعية وامتيازاتها ؟ اما يفهم الشعب — وان لم يكن موحد المناطق بعد — ان خيرات هذه الدنيا زائلة وان ابناءه اذا تعبوا واضطهدوا وجاعوا وعطشوا وصبروا ولم «يحسدوا» ذوي النعمة فطوبى لهم لانهم يرثون بذلك ملكوت السماء ؟ ولا باس اذا شيدوا قصور اسيادهم وزينوا جدرانها بالنقوش والرسوم الجميلة وساحاتها بالازهار البسامة والاشجار الظليلة واعتنوا ببحيرة القصر الضاحكة التموّجات ، بل لا بأس ان يسكنوا هم الاكواخ الحقيرة القذرة ؛ فالسيد الرب ولد في مغارة وعاش حياته فقيراً معذباً ولم يكن له حجر يسند اليه رأسه ...

هكذا كان كبار الاكليروس « يفهمون » تعاليم الانجيل .

يجب ان يكدح الفلاح وان تكدح امرأته وان يتقدم مع دوابه

واولاده للسخرة – فهي من حقوق السيد عليه – وان لا يطحن حبوبه او يخبز خبزه او يعصر عنبه او زيتونه الا في مطاحن السيد وافرانه ومعاصره وان يخضع للاجور التي يفرضها هذا عليه ، وان يقضي الكثير من لياليه وافراد عائلته ، منتشرين على ضفاف بحيرة القصر ، يلوّحون بالمشاعيل – وزيتها على حسابهم – لتسكت الضفادع وينام سكان القصور نوماً هانئاً .

وهذا ليس كل شيء : ينبغي على امرأة الفلاح او ابنته ان تقضي الليلة الاولى من زفافها عند السيد الاقطاعي لا عند زوجها ... هذا اسمه : حق اول ليلة . والويل لمن يتمرد على السلطة ، فهو انما يتمرد على الله !

التطور لا يقف عند حد : بل اصبح على الفلاح ان يدفع ضريبة نقدية للحكومة الاقطاعية الجديدة ، اذ ان الاقطاعيين ما لبثوا ان تنادوا – من جراء الصراع الناشب فيما بينهم من جهة ، وبينهم وبين التجار والفلاحين من جهة ثانية – الى ايجاد حكومة مركزية مطاعة تدفع عن كيانهم شبح هول محتمل الوقوع . فأوجدوا تلك الحكومة وشكلوا من فرقهم العسكرية المبعثرة في المناطق جيشاً موحداً وضعوه تحت تصرف حكومتهم الاقطاعية المركزية .

ولم يكف الفلاح بلاء انه يدفع للحكومة الجديدة ضريبة نقدية وانه يقدم عند انصرام المواسم حاصلات الارض لسيده وليس له هو منها شيء يذكر بل امسى مجبراً ان يحمل هذه الحاصلات – هو او دابته – وينزل بها الى حيث يبيعها ويرجع الى السيد حاملاً له النقد صافياً لا غبار عليه : وهذه واحدة من بذور الرأسمالية تنمو في قلب الاقطاعية ، اذ ان هذه العملية جعلت تساعد على توسيع السوق التجارية . وراح الفلاح يقع تحت رحمة المرابي لانه يستدين منه بانتظار المواسم ، كما راحت ارض قسم من

الفلاحين الذين لا يزالون يملكون ارضاً تنتقل رويداً رويداً الى هـذا الطاغية الجديد .

وهذه ليست الصفحه الاخيرة من صفحات آلامهم : فولوع الاسياد بوسائل الزينة وشراء الاشياء الكمالية وغير الكمالية التي كانت تتطور يوماً بعد يوم دفعهم الى تشديد الخناق الاستثماري على الفلاحين اكثر فأكثر ، مما جعل هجرة هؤلاء تتسع . انهم كانوا يهربون من تزايد البؤس والضغط في القرية ويتدفقون عـلى المدينة المتمتعة بحرية امدى ! فزاد التضييق على لجان الحرف من جهة وبات محظوراً قبول صنـاع جدد ؛ ومن جهة ثانية انيخ الفلاحون في القرية لنير العبودية ... وعبثاً كانوا ينتفضون ويتمردون – قبل الاوان – على هذا النير الفظيع . فامسوا عبيداً مسمرين الى الارض ، خاضعين لاستثمار عنيف ؛ وعزاؤهم – ان كان للعزاء من مجال – انه لا يحق للسيد بيعهم مستقلين بل تبعاً لارضه اذا باعها . والذين يذهبون منهم هذه المرة الى المدينة لشأن من شؤون السيد يجب ان يكونوا مرتدين نوعاً معيناً من الالبسة او ان يكون على ظهورهم مثلاً خرقة صفراء ليعرف الناس انهم عبيد ...

نمو الرأسمالية

في صدوع النظام الاقطاعي

ليس من محنة تدوم. فالمحنة في التاريخ «غمامة صيف ...»

ها هو طريق الهند البحري وها هي اميركا تنفتح ابوابها في القرن الخامس عشر. وسوقهما تنادي الناس ولا سيما التجار. فشرع هؤلاء يفتشون عن طرائق جديدة تساعدهم على خلق منتجات اغزر، لان اسواق اميركا والهند تستوعب كثيراً. فانبروا شطر القرى متحيلين على لجان المدينة الحرفية – لشراء المنسوجات وسائر المصنوعات من الحرفيين المنعزلين في القرية، باسعار بسيطة. ذلك في بادىء الامر. ثم اخذوا يقدمون مالاً او مواد اولية للمنتجين المنفردين: فيصنع هؤلاء المواد المقدمة بآلاتهم الخاصة؛ اما المال فاخذوا يعجزون مع الوقت عن دفع ما هو دين منه عليهم. فرزحوا تحت الديون ... وامست ادوات العمل التي في يد اكثرهم ملكاً للتاجر. ثم ما لبث التجار ان جعلوا يجمعونهم في اماكن معينة – في ورشات – ويوزعون عليهم العمل: كل يقوم بفرع من فروع الشغل او بجزء من اجزائه لقاء اجر متفق عليه. فتوزيع العمل على هذا الشكل – المنيفكتوري – دفع بالانتاج خطوات واسعة الى امام فاعطى كميات عظيمة بالنسبة لما تعطيه لجان الحرف.

وهكذا جعل الحرفي المنفرد، المالك ادوات انتاجه ومنتجاته، يتحول الى منتج لا يملك ادوات انتاجه ويعمل بين عشرات العاملين امثاله في ورشة واحدة ولقاء اجور معينة: اجرة قوة عملهم التي لا يملكون غيرها.

وهكذا ايضا عانق الشكل الجديد للعمل الانتاجي شكلاً جديداً للعلاقات الانتاجية : رأسمال النجار الربائي التجاري تحول الى رأسمال صناعي ، فاصبحوا يملكون وسائل الانتاج او ادواته والمنتجات بينما لا يملك المنتجون كما قدّمنا الا قوة عملهم التي يبذلونها لقاء اجر معين .

وهذا الشكل الجديد في العلاقات الانتاجية لا بدّ الا ان يخلق شكلا جديداً يناسبه في الهيئات والمؤسسات الاجتماعية وفي شتى ميادين الفكر والفن والمعتقد . ذلك عندما يشتد ساعده .

على هذا النحو ولد الانتاج الرأسمالي وولدت معه طبقتاه الرئيسيتان.

وراح ذهب اميركا يتغلغل في صدوع النظام الاقطاعي مساعداً على تفكيكه . وكان الاقطاعيون انفسهم – بسبب تزايد حاجاتهم ولا سيما الكمالية منها – يتهالكون على هذا الذهب ، بالرغم من الصراع الناشب بينهم وبين التجار (الرأسماليين) اصحاب الانتاج الجديد . ولا عجب في هذا التناقض فالنظام الطبقي مبني على تناقضات اعمق واخطر .

وكانت مشاريع التجار (الرأسماليين) بحاجة متزايدة ان في القرية او في المدينة الى الايدي العاملة ، الرخيصة . لكن الاقطاعيين واستعبادهم للفلاحين كما ذكرنا ، واساتذة لجان الحرف وتقييدهم للحرفيين كانا يحولان دون ذلك ويعرقلان نمو الانتاج الجديد .

وكان الخمول يدب الى اراضي الاقطاعيين دبيباً مخيفاً ، والتلاشي يجتاح الانتاج الزراعي المبني على عمل العبيد المرهقين. وفبارك الرأسماليين الجدد بحاجة ملحة الى المواد الاولية ، وهذه منبعها في اراضي الاقطاعيين!

كيف العمل ؟

ان الجو ينذر بشر مستطير .

ويجمل ان نلاحظ هنا ان افكار الفلاسفة والسياسيين و « الابطال » على اختلاف بجداتهم لم تخلق هذا التطور او النظام الجديد بل هو الذي

خلق افكارهم ... مع احترام تأثيرها الايجابي بعد ميلادها ! فاصبح من الضروري ان يطالبوا وان يعملوا لتحقيق هذه الضرورة التاريخية ، او على الاصح لتعجيل تحقيقها ، وهي : هدم الاقطاعية وعبوديتها وبجان حرفها ... وبتعبير آخر : ان يكتبوا ويناضلوا من اجل الحرية للانسان ولاعماله ، ولتوزيع السلطات التي يحتكرها ملك الدولة الاقطاعية ، ولتوحيدالبلاد واسواقها واشواقها ،ولتوزيع الاراضي على الفلاحين لكي تنتعش وتعود الحياة اليها ، وهلم جرا .

واخذ يتكتل في بلاد بعد اخرى معسكران وثقافتان : معسكر الاسياد الاقطاعيين وكبار الاكليروس من جهة ، ومعسكر الرسمالية الجديدة او البرجوازية والفلاحين والطبقة العاملة الناشئة وفقراء الاكليروس من جهة ثانية . وجعل الصراع يحتدم بين المعسكرين : بين الاقلية الحاكمة المدافعة عن الانتاج الاقطاعي القديم المستند الى عمل العبيد ، والاكثرية الساحقة المحكومة والمدافعة عن الانتاج الجديد الارقى تدعمه الالة البخارية ... بين الذين يريدون بقاء الحكم المطلق ويقولون ان السلطة من الله ، والذين يقولون ان السلطة من الشعب ويريدون الحكم جمهوريا او ملكية دستورية . المعسكر الجديد النابض بالفتوة والحياة يتهدد ويتوعد ، والمعسكر القديم الخرف يقيم الحفلات الضخمة ليظهر انه لا يزال قوياً ويوهم الشعب انه يبطش به ايما بطش إما طغى وتطاول . ولكنها كانت آخر ايام الاقطاعيين الجميلة ، اذ راح نظامهم المتفسخ يتزلزل امام القوى الانتاجية والثقافية الجديدة ، وراحت الثورات منذ القرن السابع عشر تدحرج عروش الحكم المطلق في اكثر بلدان العالم الواحد تلو الآخر .

وهكذا نشأت الرأسمالية في صدوع النظام الاقطاعي وظلت تترعرع حتى بطشت به واستولت على اكثر ثرواته ...

كتب للمؤلف

الخلود
انا طير شرود — شعر
جنية الوادي

دموع افروديت — (مجموعة قصصية)
طريق التاريخ — (الجزء الاول)

انتهى طبع الجزء الاول من هذا الكتاب

في ٥ تموز ١٩٥٠

على مطابع سميا ـ بيروت ـ شارع عبد الوهاب

DATE DUE

JAFET LIB.
30 JUN 2006
Circulation Dept.

JAFET LIB.
31 AUG 2006
Circulation Dept.

301:M95tA:c.1
مكرزل ،قبلان
طريق التاريخ
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01011085

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

301
M95tA

General Library

301
M95tA
c.1